التعليم العالي: إذا لم تستح فاصنع ماشئت

بقلم: د.مصطفى حسين بطيخة

تم نشر المقال التالي في 25 أيلول 2025 في جريدة زمان الوصل الالكترونية:

https://www.facebook.com/share/p/1B3Dw8LgGP/

في الدول الدكتاتورية اللاديمقراطية، وعند حدوث انقلاب أو تغير في المشهد السياسي مترافق مع قدوم قائد ملهم جديد تصدح له الحناجر وتتقرح الأيدي لسيادته من التصفيق وتعمى الأبصار وهي تنظر إلى شمس وجهه الوضاءة وتتنشق الرئتين نسائم إبطيه العطرة، يعمل هذا الرب الجديد الذي لايأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه أن يظهر للناس أنه مختلف عن ربهم وصنمهم القديم الذي عبدوه، فيقوم بإحداث إصلاحات مؤقتة وله منها هدفان، الأول أن يقدم الحجج للالتفاف المجتمعي حوله إلى حين، والثانية أن يعطي الفرصة للرؤوس المعارضة أن تتطاول وتينع إلى أن يحين قطافها كما فعل الحجاج. عندما جاء حافظ الأسد بحركته التصحيحية في العام 1970 نتيجة الرغبة الدولية التي شرحتها في مقال سابق بعنوان (القطبية الدولية وسوريا الوظيفية) على موقع سيريانيوز، عمل بداية على تشكيل مجلس شعب متنوع ومعين وليس منتخباً واختار لهذا المجلس القيادات المجتمعية والحزبية من الصف الأول كالسياسي البارز الدكتور جمال الأتاسي، وكذلك فعل بوزارته الأولى، واستمر الوضع كذلك حتى انتهى الأسد من حرب تشرين الخلبية مع اسرائيل في العام 1973 فقام بحل مجلس الشعب المصطفى وأعلن انتخاب مجلس جديد بنسبة 65٪ من البعثيين، ولكن حافظ الأسد لم يكن قد أعلن إحكام القبضة الأمنية حتى العام 1979 في معركته مع الإخوان المسلمين والتي اتخذها الأسد ذريعة لقطف جميع الرؤوس التي أينعت حتى الشيوعية غير الإسلامية منها وقادة الحركات النقابية، ثم استوى على العرش كما الرب. عندما جاء بشار الأسد في العام 2000 اتبع خطى والده المفدى فأعلن الحريات فسمح للفنان (علي فرزات) بإطلاق جريدته الأسبوعية

(الدومري)، وقام بتعيين (محمود سلامة) رئيساً لتحرير صحيفة الثورة والذي فتح صفحاتها للمفكرين والمعارضيين، وسمح للمنتديات الفكرية بممارسة نشاطاتها فسميت هذه المرحلة بربيع دمشق والتي استمرت سبعة أشهر بعكس أبيه الذي لم يعلن ربوبيه الكاملة إلا بعد مضي 9 سنوات، ثم بدأ الأسد الابن بقطف الرؤوس التي أينعت في تلك المنتديات وأرسل نائبه (عبد الحليم خدام) ليعلن من على منبر مدرج جامعة دمشق أن هذه الرؤوس تسعى لجزأرة سورية (إعادة ماحدث في الجزائر من مذابح في التسعينيات). بالنسبة لي كنت أستفيد من مرحلة التقلبات تلك كي أتكلم في قضايا تهم التعليم العالي، ففي العام 2002 نشرت مقالاً في (صحيفة الثورة السورية) بعنوان (أمن التفوق) وفيه أعترض على تعيين ابن نائب الأسد زهير مشارقة كمعيد دون مسابقة، وقد أخذت هذه المقالة صدى وأثراً كبيراً حينها، فقامت وزارة التعليم العالي بزيادة عدد المعيدين الموفدين بمقدار الثلث كذر للرماد في العيون. في العام 2011 –عام انطلاق الثورة السورية– نشرت مقالاً آخر على موقع (عكس السير) بعنوان (السيرك وقرارات وزارة التعليم العالي) أعترض فيه على قرار أصدرته الوزارة يهدد المتفوقين، وقد اجتمع بي يومها وزير التعليم العالي واقتنع بحججي وقام بإلغاء القرار بعد عام. بعد سقوط الأسد وجدت أن الفرصة أصبحت سانحة للحديث عن موضوع الموفدين والمطالبات الضخمة بحقهم وكفلائهم، فكتبت ثلاث مقالات متعاقبة على مدار أربعة أشهر على موقع (زمان الوصل) حول المرسومين 2017 و2018 وبينت فيهم وبالتفصيل الممل مخالفة هذين المرسومين للدستور والقانون المدني السوريين في خمسة مواضع ودعوت لإلغاء هذين المرسومين اللاقانونين والعودة إلى العقود المبرمة وفق المادة القانونية أن (العقد شريعة المتعاقدين). كنت أراقب باستمرار موقع وزارة التعليم العالي ووزيرها المبتسم دائماً أن ينطق بحرف واحد حول هذه المسألة. كنت أتساءل كيف أن وزيري تعليمٍ في المرحلة الأسدية قد أخذوا بمقالاتي السابقة على محمل الجد وقاموا بالتغيير، وكيف أن وزير التعليم الحالي والذي يفترض أن يلغي مراسيماً أسدية جائرة لايتناولها أو لايجرؤ على

تناولها لحاجة في نفس يعقوب، ويعقوب هنا ليس الوزير بل هو من يدير الوزير أو (حراس البوابة) كما أرادت أن تسميهم (زمان الوصل) في تقرير لها بعنوان (الفساد في سوريا ما بعد الثورة: عودة السرطان في ثوبٍ جديد). المضحك المبكي أن صفحة وزارة التعليم العالي مليئة باتفاقيات مع جهات تعليمية خارجية لتطوير التعليم العالي في سوريا متناسين أن هنالك حوالي ثلاثة آلاف موفد حاصلين على شهادة الدكتوراة من جامعات عريقة، والبعض بقي يعمل بها وهم يحملون من الخبرات أكثر بكثير مما سيأتي من الاتفاقيات الموقعة، ولكن إصرار وزارة التعليم بعدم البت بمشكلتهم وإنصافهم قانونياً يجعلهم يبتعدون عنها، فطوبى لك ياوزارة التعليم العالي وطوبى لوزيرك المبتسم دائماً على موقعك.

في العام 2005 كتبت بعض القصائد في وصف نظام بشار الأسد ومنها هذه الأبيات:

أَرَادُوا فِي مَنَـاصِـبِنَا ضَـيَاعَـاً ... فَجَاؤُوا بِالعَبِيْدِ وَمَنْ يَـجُورُ

وزُوِّرَتِ الحَـقِيْقَةُ دُوْنَ خَوْفٍ ... وَطَـبْعُ العَاجِزِينَ هُوَ الفُجُورُ

أَيَا بَلَدِي وَ عَـتْبِـــيَ لَا أُدَارِي ... أَلِلخِصْيَانِ فِيْ وَطَنِي عُـطُوْرُ !!

وَإِنْ أَقْسُـو قَلِيْـلَاً سَامِحِـيـنِـي ... فحُبِّـيَ أَقْوَى مَا عَرَفَت دُهُوْرُ

لقد كان ذلك في الأمس الذي نحب ألا نراه يعود مرة أخرى، وكم أرجو أن يأتي اليوم الذي أمزق فيه تلك القصائد، فعودي ياوزارة التعليم إلى رشدك وأرينا أنك تستمعين إلينا وتقرئيننا كما كانوا يقرؤننا بعض وزراء الأسد، وإلا صح عليك حديث الرسول الكريم: (إذا لم تستح فاصنع ماشئت).